20me. année No 989

Le Caire 16 — 6 — 1952

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٨٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنة ١٣٧١ — ١٦ يونية سنة ١٩٥٢ — السنة العشرون

ضريبة الذل ...

الأستاذ سيد قطب

بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة ، هربا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة !

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة . إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيرا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون

وإنهم ليحسبون أنهم ينالون فى مقابل الكرامة التى يبذلونها قرب ذوى الجاه والسلطان حين يؤدون إليهم ضريبة الذل وهم صاغرون . ولكن كم من تجربة انكشفت عن نبذ الأذلاء نبذ النواة ، بأيدى سادتهم الذين عبدوهم من دون الله

كم من رجل باع رجولته ، ومرغ خديه فى الثرى تحت أقدام السادة ، وخلع وخضع ، وضحى بكل مقومات الحياة الإنسانية ، وبكل المقدسات التى عرفتها البشرية ، وبكل الأمانات التى ناطها الله به أو ناطها الناس .. ثم فى النهاية إذا هو رخيص رخيص ، هين هين ، حتى على السادة الذين استخدموه كالكلب الذليل ؛ السادة الذين لهث فى إثرهم ، ووسوس بذنبه لهم ، ومرغ نفسه فى الوحل ليحوز منهم الرضاء !

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفا ، وأن يكون كريما ، وأن يصون أمانة الله بين يديه ، ويحافظ على كرامة الحق وكرامة الإنسانية ، وكان فى موقفه هذا مرهوب الجانب ، لا يملك له أحد شيئا ، حتى الذين لا يريدون له أن يرعى الأمانة ، وأن يحرس الحق ، وأن يستمر بالكرامة ، فلما أن خان الأمانة التى بين يديه ، وضعف عن تكاليف الكرامة ، وتجرد من عزة الحق ، هان على الذين كانوا يهابونه ، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذى هو حارسه ، ورخص عند من كانوا يحاولون شراءه ؛ رخص حتى أعرضوا عن شرائه ، ثم نبذ كما تنبذ الجيفة ، وركلته الأقدام ، أقدام الذين كانوا يعبدونه ويعدونه ، يوم كان له من الحق جاه ، ومن الكرامة هيبة ، ومن الأمانة ملاذ

كثيرهم الذين يهوون من القمة إلى السفح ، لا يرحمهم

أحد ، ولا يترحم عليهم أحد . ولا يسير فى جنازتهم أحد ، حتى السادة الذين فى سبيلهم هووا من قمة الكرامة إلى سفوح الذل ، ومن عزة الحق إلى مهاوى الضلال

ومع تكاثر المظالم والتجارب . فإننا ما نزال نشهد فى كل يوم ضحية . ضحية تؤدى ضريبة الذل كاملة . ضحية تخون الله والناس ، وتضحى بالأمانة وبالكرامة . ضحية تلهث فى إثر السادة ، وتلهث فى إثر المطامع والمطامح ، وتلهث وراء الوعود والسراب .. ثم تهوى ، وتثوى هنالك فى السفح خانعة مهينة ، ينظر إليها الناس فى شماتة ، وينظر إليها السادة فى احتقار

لقد شاهدت فى عمرى المحدود — وما زلت أشاهد — عشرات من الرجال الكبار يحنون الرءوس لغير الواحد القهار ، ويتقدمون خاشعين ، يحملون ضرائب الذل تهبط كواهلهم ، وتحنى هاماتهم ، وتلوى أعناقهم وتنكس رؤوسهم .. ثم يطردون كالكلاب ، بعد أن يضموا أحمالهم ، ويسلموا بضاعتهم ، ويتجردوا من الحسنيين : فى الدنيا والآخرة ، ويمضون بعد ذلك فى قافلة الرقيق لا يحس بهم أحد حتى الجلاد !

لقد شاهدتهم وفى وسعهم أن يكونوا أحراراً ولكنهم يختارون العبودية ، وفى طاقتهم أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم يختارون التخاذل ، وفى إمكانهم أن يكونوا مرهوبى الجانب ، ولكنهم يختارون الجبن والمهانة .. شاهدتهم يهربون من العزة كى لا تكلفهم درهما ، وهم يؤدون للذل دينارا أو قنطارا .. شاهدتهم يرتكبون كل كبيرة ليرضوا صاحب جاه أو سلطان ، ويستظلوا بجاهه أو سلطانه وهم يملكون أن يرهبهم ذوو الجاه والسلطان !

لا بل شاهدت شعوبا بأسرها تشقى من تكاليف الحرية مرة ، فتظل تؤدى ضرائب العبودية مرات . ضرائب لا تقاس إليها تكاليف الحرية . ولا تبلغ عشر معشارها . وقديما قالت يهود لنبيها : « يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون » .. فآثرت ثمن هذا النكول من تكاليف العزة ، أربعين سنة تتيه فى الصحراء تأكلها الرمال ، وتذلها الغربة ، وتشردها المخاوف .. وما كانت لتؤدى معشار هذا كله ثمنا للعز والنصر فى عالم الرجال !

إنه لابد من ضريبة يؤديها الأفراد ، وتؤديها الجماعات ، وتؤديها الشعوب . فإما أن تؤدى هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية ، وإما أن تؤدى للذلة والمهانة والعبودية ! والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التى لا مفر منها ولا فكاك

فإلى الذين يفرقون من تكاليف الحرية ، إلى الذين يخشون عاقبة الكرامة ، إلى الذين يمرغون خدودهم تحت مواطئ الأقدام ، إلى الذين يخونون أماناتهم ، ويخونون كراماتهم ، ويخونون إنسانيتهم ، ويخونون التضحيات العظيمة التى بذلتها أمتهم ، وبذلتها الإنسانية لتحرر وتتخلص

إلى هؤلاء جميعا أوجه الدعوة أن ينظروا فى عبر التاريخ وفى عبر الواقع القريب ، وأن يتدبروا الأمثلة المتكررة التى تشهد بأن ضريبة الذل أفدح من ضريبة الكرامة ، وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية ، وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة ، وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية ، وأن الذين لا يرهبون الجاه والسلطان يرهبهم الجاه والسلطان

ولدينا أمثلة كثيرة وقريبة على الأدلاء الذين باعوا الضمائر وخانوا الأمانات وخذلوا الحق وتمرغوا فى التراب ، ثم ذهبوا غير مأسوف عليهم من أحد ، ملعونين من الله ! ملعونين من الناس . وأمثلة كذلك — ولو أنها قليلة — على الذين يأبون أن يذلوا ، ويأبون أن يخونوا ، ويأبون أن يبيعوا رجولتهم بيع السماح . وقد عاش من عاش منهم كريما ، ومات من مات منهم كريما

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

سيد قطب